من قضايا اللغة
وجوب تحليل البناء اللغوى
من خلال سمع الحدث اللغوى وأعلامه (١)

للدكتور البدراوى زهران

تمثيل اتجاه لغوى محدث ينادى بضرورة دراسة اللغة من خلال تمثيل المسرح الذى دارت عليه الأحداث اللغوية (٢) .

وهو اتجاه له مبرراته العلمية ، وتحتمه الدقة المطلوبة فى هذا المقام ؛ وذلك لأن اللغة تنبع من واقع حى تتفاعل معه عناصرها المختلفة فتحمل من ظلال هـذا الواقع وايحاءاته عناصر كثيرة تمتزج بعناصر بنيتها الأساسية ؛

والتحليل العلمى ينبغى ألا يتم بمعزل عن هذا الواقع ، وما يعكسه من ظلال وإيحاءات ..

وتحتم الدقـة العلمية إدخال العناصر المختلفة فى تحليل البناء اللغوى ان كانت ذات دخل فيه .. سواء كانت من عناصر اللغة أو من غيرها ..

ومما يجب أن يوضع فى الإعتبار عند دراسة البناء اللغوى وتحليله ، دراسة تلوين النطق ، وكيفية الأداء ، ذلك

---

(١) على الرغم من أن تلك القضية تعد من قضايا الدرس اللغوى المحدث إلا أننى أرى أن للسلف من علمائنا دورا فى إرساء دعائمها ؛ لذلك فسوف يكون تناولى لها من خلال المفهومين :

* مفهوم المدرسة اللغوية الغربية الحديثة ؛ • ومفهوم المدرسة اللغوية العربية القديمة الحديثة :

وسوف أركز على الجانب الأخير ، وذلك لأن أمره مجهول منكور فى الدرس اللغوى قديمه وحديثه على السواء .

(٢) هو اتجاه غربى محدث ولكن له أصداؤه فى بعض الأعمال فى الدراسات اللغوية الحديثة عندنا ؛ انظر على سبيل المثال : د . كمال بشر : دراسات فى علم اللغة : القسم الأول ص٣٢ / ٣٣ وأنظر له أيضا : علم اللغة العام : القسم الثانى الأصوات . . وأنظر كتابنا فى علم اللغة التاريخى دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى .

(٣) معظم المدارس اللغوية الغربية الحديثة تدخل فى اعتبارها عند تحليل الحدث اللغوى بعض العناصر غير اللغوية المتصلة بالكلام . . والمدرسة اللغوية الغربية الحديثة الصريحة فى هذا المنهج ، الواضحة فى تطبيقه هى المدرسة الإنجليزية الاجتماعية مدرسة العالم اللغوى J. R. Firth أنظر فى ذلك ماذكرناه من مراجع خاصة بهذا الموضوع فى العربية والافرنجية — فى مقالنا : صورة كل بناء لغوى تتفق مع معناه الخاص به — فى مجلة معهد اللغة العربية . جامعة أم القرى ع ١ من ص ١٤٦ — وانظر المقال من ص ١٣١ — وما بعدها .

التلوين والأداء الذى يصبح معه البناء اللغوى الواحد أنواعا مختلفة من الأبنية لكل نوع سماته الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمعجمية على الرغم من الاتفاق فيما بينها جميعاً فى كل مكوناتها الأساسية من حيث عملية البناء اللغوى، والشكل العام الذى جاءت عليه[1].

فالأداء النطقى والتلوين الصوتى قد يحدث تأثيرات مطردة فى البناء اللغـــوى ربما شملت كل مستويات التحليل اللغوى ... لذلك لا نعجب عندما نرى اهتماماً بالغاً ينصب على هـــذا المجال فى الدرس اللغوى الحديث بل إن العالم اللغوى « بالمار »

"Palamer, Harold E."

يضع كتاباً بأكمله فى قواعد اللغة الإنجليزية المنطوقة المبينة على أسس صوتية صرفة، هذا فضلا عن مؤلفات متعددة له تخدم هذا الاتجاه أيضاً[2].

وغير خاف أن ما يتبع طريقة الأداء والتلوين الصوتى من عناصر صوتية لا يمكن تسجيلها بالكتابة العادية . . ، . وهى وإن كانت عناصر ثانوية حقا « Secondary » أو عناصر ما فوق التركيب "Supersegmental Phonetics"

إلا أنها ذات أهمية كبيرة ، لذلك فقد لجأت الدراسات اللغوية الحديثة إلى تسجيلها لإجراء التحليلات الخاصة بها عن طريق الكتابة الصوتية "phonetic Symbols" "Phonetics Transcriptions"

فبواسطتها يمكن إعطاء أكبر قدر يمثله الواقع اللغوى الحى بعناصره الإيحائية التى تعكس التفاعل بين المجتمع وعناصر اللغة داخل بنيتها . . ، . . « وذلك كان من عوامل وضوح الفكرة وقبولها اليوم لدى المحدثين » وعلى العكس من ذلك لقى السلف من علمائنا فى هذا الصدد عنتا شديداً[3]

---

(١) هناك أمثلة كثيرة سنعرض لها فيما بعد ؛ ونضرب الآن فقط مثلا مما ذكره الدكتور كمال بشر . . حيث أنه تحدث عن أنواع من الجمل فى العامية المصرية تخلو من الأدوات الخاصة ويكون اعتمادها على التنغم ، وبمساعدة المقام والسياق يعطى المثال الواحد أكثر من دلالة ، فهو مرة يدل على التهكم ومرة على الزجر ، ومرة على الموافقة ، وأخرى على الرفض أو الاستغراب . . أو الدهشة . . أو غير ذلك . . ومثاله الذى ضربه على ذلك من العامية المصرية قولهم : « لا يا شيخ . . » كما نسمعه بصوره المتعددة فى مواقف مختلفة . . . .

انظر فى ذلك كتابه : علم اللغة العام . القسم الثانى . الأصوات من ص ٢١٢ – واقرأ ما بعدها إلى ص ٢١٦

(٢) انظر فى ذلك لبالمر . ا .

Palmer Harold E.

1. A grammar of Spoken English. Cambridge, 1924.
2. English Intonation, Cambridge 1922.
3. A First Course in English Phonetics Cambridge, 1922.
4. The Principles of language Study. London, 1921.

(٣) على عكس ما صادف علماؤنا فى ذلك فقد لقى العارضون للفكرة والمتقبلون لها عنتا شديدا على نحو ما ستتضح أبعاد ذلك فيما يأتى .

والأمر الذى أريد أن أنتهى إليه هو أن هذا الاتجاه وإن كان قد ظهر حديثا فى الدرس اللغوى إلا أن بذور مباحثه متأصلة فى تراثنا . :

وأرى أن عبد القاهر الجرجانى واضع أسس هذه الدراسات . . ، . . (١)

وأرى أن استفادة ما من مباحث عبد القاهر فى هذا المجال حدثت ، وإن لم يُشَرْ إلى ذلك لا من قريب ولا من بعيد (٢)

ولأن عبد القاهر لم تكن لـــديه إمكانيات الدراسة الحديثة وكان يرود فى طريق غير معلومة ، ويجتاز شعابا غير مسلوكة لقى عنتا شديدا من معاصريه وجاءت أراؤه وقد استنفدت منه جهدا جهيدا ضاربا عليها أمثلة متعددة ما بين توضيحية وتطبيقية ومع ذلك ما زالت أراؤه مجهولة منكورة ... ولكنها فى حاجة إلى وقفة متأملة متأنية منصفة . . ، . .

حقيقة الأمر أن عبد القاهر ألهم حسا لغويا أصيلا متمكنا جعله يتعامل مع روح اللغة على الرغم من أنه يحلل نصوصاً لغوية مكتوبة ، ومعلوم أن محلل الكلام المكتـــوب مفتقـــد لعنصر الكلام الفعلى على نحو ما هو ثابت فى حقل الدرس اللغوى . . غير أن تمكن عبد القاهر من اللغة واستقصاءه أوضاعها وفهم بنيتها وتعمقه فى تحليلها جعله يفطن إلى شىء أعانه عليه معايشته للدرس اللغوى التقليدى فقد كان عبد القاهر إمام اللغة فى عصره والنحوى المفتن فى العربية ونحوها الذى تشد إليه الرحال طلبا لاغة والنحو برع فى مجال النحو التقليدى ومجال التفسير (٣) معاً ونطن عبد القاهر فى مجال التفسير

---

(١) لابن جنى التفاتة إلى وجوب استفادة الدراسة النحوية والصرفية من مباحث الدراسات الصوتية – وقد ناقشنا هذه القضية فى المقدمة التى كتبناها لتحقيقنا لكتاب « شراب الراح فيما يتوصل به للعزى والمراح » ونرى أنه سمى كتابه فى الدراسات الصوتية « سر صناعة الإعراب » لأنه أراد أن يؤكد رأى شيخة أبى على الفارسى فى أن : الجانب الصوتى فى الدراسة النحوية هو الجانب المحسوس منها . أنظر المقدمة واقرأ ص ٢٠ – واقرأ مناقشتنا لرأى المحققين فى سبب تسمية كتابه « سر صناعة الإعراب » بهذا الاسم ص ١٩ / ٢٠

(٢) على نحو ما ستتضح أبعاد هذه القضية من خلال هذه الدراسات فيما بعد .

(٣) ارجع فى ذلك لكتب الطبقات والتراجم التى ترجمت له من نحو :

أنباه الرواه على أنباه النحاة ٢ / ١٨٨ وطبقات الشافعية لعبد الوهاب السبكى ٣ / ٢٤٣ ، وطبقات ابن قاضى شهبه ٢ / ٩٤ ، ٩٥ – ودمية القصر – للباخرزى / ١٠٨ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥ / ١٠٨ – وفوات الوفيات ١ / ٣٧٨ / ٣٧٩ – وطبقات المفسرين للداودى ، ١٤٠ ب – وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ط القدس ٣ / ٣٤٠ – وروضات الجنات ١٤٣ – ونزهة الألباء ٤٣٤ / ٤٣٦ ومرآة الجنان ٣ / ١٠١ – وبغية الوعاة ٣١٠ / ٣١١

إلى شيء وسّع مجال التأويل والتفسير وذلك هو أن البناء اللغوى الواحد يمكن أن يؤدى معانى مختلفة من غير أن يزاد فيه أو أن ينقص منه ، ودون أن يحول فيه لفظ من مكان إلى مكان . . ، . يقول عبد القاهر :

« واعلم أن الفائدة تعظم فى هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام فى معناه عن صورة إلى صورة ، من غير أن تغير من لفظه شيئا أو تحول كلمة عن مكانها إلى مكان آخر وهو الذى وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون فى الكلام الواحد تأويلين أو أكثر ، ويفسرون البيت الواحد عدة تفاسير .[1]

وتلك كانت من عبد القاهر التفاتة رائعة . . . اتخذ منها بداية لانطلاقه فى هذا المجال ؛ أقام عليها مبادىء وشيد أسسا ودعائم .

ولما تدبر الأمر ، ووجد أن ذلك يرجع إلى طبيعة اللغة وإلى ارتباطها ؛ بأحوال المخلوقين ، وعاداتهم ، وظاهر أمرهم ، وموضوع جبلّتهم ، . . . انتهى إلى أن التأويلات النحوية المنبثقة عن التقديرات العقلية فقط تغفل طبيعة اللغة وتسىء إلى فهمها إساءة شديدة . . . . بل الأكثر من ذلك أنها قد توقعهم فى ضلالة كبيرة ، وقد تقودهم إلى الكفر والعياذ بالله [3] . .

فلم يرض عن ذلك ورفضه تماما ، واصطدم بالنحاة وهو إمامهم فى عصره [4] والأكثر من ذلك أنه رمى اللغويين العرب المعاصرين له والسابقين عليه بالغفلة والجهالة لأنهم لم يضعوا ذلك المبدأ فى اعتبارهم ، ولم يستجيبوا له ، وأن غفلتهم كانت عظيمة ،

وتلخيص ابن مكتوم ١١٢ / ١١٣ وكشف الظنون ٨٣ / ١٢٠ / ٢١٢ / ٦٠٢ / ١١٦٩ ١١٧٩ . . . الخ .

واقرأ ماكتبناه عنه فى كتابنا عالم اللغة عبد القاهر الجرجانى المفترى عليه فى العربية ونحوها نشر دار المعارف ط٢/١٩٨١ ، ط(١)١٩٧٩ وفى كتابنا شرح العوامل المائة النحوية فى أصول علم العربية نشر دار المعارف ط١٩٨٣

ولعبد القاهر فى مجال التفسير : كتاب إعجاز القرآن الصغير ويسمى (المقتضب) وكتاب إعجاز القرآن الكبير ويسمى المعتضد—كما أن له شرح سورة الفاتحة وله فى مجال النحو التقليدى : المغنى—والمقتصد والتكملة ، والتذكرة ، والجمل والإيجاز والتلخيص والعوامل المائة النحوية . . . الخ . .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٨٦

(٢) دلا ئل الإعجاز ص ١٨٥

(٣) نصوص عبد القاهر الخاصة بذلك وبقية أبعاد القضية ستأتى بعد ذلك .

(٤) سوف تأتى النصوص الخاصة بذلك أيضا ، مع بقية أبعاد القضية الخاصة بها بعد ذلك أيضا انظر ص١٠٣من هذا البحث وما بعدها

وهم يحللون النص القـــرآنى تحليلا بعيدا عن روح اللغة ، وعن ربط اللغة بأحـــوال المخلوقين وعاداتهم وظاهر أمرهم وموضوع جبلتهم [1] .

وسوف نتناول أبعاد هـــذه الفكرة كما تراءت لنـــا عند عبد القاهر من عدة جوانب . . .

١ ـ الجانب الأول :

عندما يأتى لفظ « قال » مفصولا غير معطوف فى نص ، وبنوع خاص نص قرآنى . . فانك تجد العلماء يقنعون بقولهم : « إن الكلام قد استؤنف ، وقطع عما قبله » ولو تدبروا لرأوا غير ذلك ـ يقـــول عبد القاهر فى هذا : قد : « قنع الناس فيه بأن يقـــولوا إذا رأوا جملة قد ترك العطف فيها : " إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك ولقد غفلوا غفلة شديدة » [2] ، وسبب غفلتهم كما يرى عبد القـــاهر وكما جاء فى نص قوله أنهم نسوا فى تحليلهم أن القرآن الكريم : « جاء على ما يقـــع فى أنفس المخلوقين من السؤال ، وإخراج الكلام ذلك المخرج ، لأن الناس خوطبـــوا بما يتعارفونه وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه »[3] .

فعبد القاهر يطلب منهم عندما يعرضوا لتحليل بناء لغوى أن يكون موقفهم منه أن يفعلوا ما يحدث دائما فى العرف والعادة بين المخلوقين فى مثل هذا الموقف ـ يقول عبد القاهر : «فكما كان فى العرف والعادة بين المخلوقين إذا قيل : دخل قوم على فلان فقالوا : كذا ، أن يقولوا : فماذا قال هو ؟ ، ويقول المجيب : قال : كذا (مفصولا غير معطوف ـ أى بدون واو) ـ جاء قوله تعالى على ذلك المخرج فى النص القـــرآنى مفصولا غير معطوف ، »[4]

تفسير رأى عبد القاهر أن من أراد أن يحلل بناء لغويا فيجب عليه أن يربط اللغة بأحوال المخلوقين وعاداتهم وبما عليه طبيعة الناس فى الحياة من تعامل مع اللغة فى مثل هذه المواقف فاللغة تنبثق عن أحوال المخلوقين وعاداتهم وما فطروا عليه فى ظاهر أمرهم وموضوع جبلتهم من أمور تمتزج بعناصر اللغة وتؤثر فى بنيتها فحذف الواو فى هذا البناء وهو أحد عناصر اللغة فى هذه البنية يعكس تفاعل عناصر اللغة بواقعها الاجتماعى وبأحوال المخلوقين وعاداتهم وما فطروا عليه فى مثل هذا الموقف فالتحليل اللغوى ينبغى أن يتم من خـــلال

---

(١) ستأتى بعد ذلك مباشرة نصوص عبد القاهر الخاصة بذلك .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٨٧

(٣) انظر السابق واقرأ من ص ١٨٥ / ١٨٦

(٤) السابق .

استحضار ما يحدث بين المخلوقين . . واللغة المكتوبة تمثيل لهذا الواقع أيضا ، وهى تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم . . ، . . فطبيعة اللغة واحدة وأحوال المخلوقين واحدة . .

معنى ذلك بتعـــبيرنا أن من أراد أن يحلل بناء لغويا تحليلا دقيقا يوقفه على أبعاد عناصره المختلفة أن يجعل تحليله من خلال مسرح الحدث اللغوى الذى دار عليه . .

ويزيد عبد القـــاهر الأمر إيضـــاحا بأن ينصب من خلال مفهومنا مسرحا لغـــويا ويحلل من خلاله بناء لغويا يطلعنا فيه على أحوال المخلوقين وعاداتهم ويبين لنا كيف أن اللغة تتبع عاداتهم وأحوالهم وظاهر أمرهم وموضوع جبلتهم . . ثم ينتهى إلى قانون وقاعدة لغوية عامة . . ، . . حيث يقول : وقد : « جاء قول الله تعالى على ذلك المخرج فى النص القرآنى الآتى[1] :

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذا دخلوا عليه . فقالوا : سلاما . قال : سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم .

قال ألا تأكلون ؛ فأوجس منهم خيفة .

قالو : لا تخف » [1]

وبعد أن يأتى عبد القاهر بالنص يتـابع تحليله على هذا النحو حيث ؛ يقول :

« فإن ذلك النص الكريم يقتضى أن يتبع :

(جـاء بعجل سمين ، فقربه إليهم) سؤالا — (أى يقتضى سؤلا من السامعين) . فما قال : حين وضع الطعام بين أيديهم ؟ . فأتى قوله :

قال : ألا تأكلون — جوابا على ذلك »[2]

« وكذلك قالوا : لا تخف — لأن قوله : فأوجس منهم خيفة —

يقتضى أن يكون من الملائكة كلام فى تأنيسة وتسكينه مما خامره ، فكأنه قيل : فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة ؟

فقيل : قالوا لا تخف » [3] .

عبد القاهر هنا يتصور الوضع الذى جرى عليه الحدث اللغوى ويستحضر ما يكون عليه المخاوقون فى أحاديثهم المتشابهة وما يصدر عن المتكلمين والمخاطبين والسامعين وكل من هو طرف فى مسرح الحـدث اللغوى ويأتى تفسيره من خلال تفاعل هـذه العناصر بواقع اللغة طبقا لما يحدث فى العرف والعـادة بين المخلوقين من ردود أفعال لغوية من كل واحد منهم [4]

---

(١) سورة الذاريات آيات ٢٤ / ٢٨

(٢) الدلائل — السابق ص ١٨٦ (٣) نفسه —

(٤) هناك المدرسة العقلية . . ، وهناك المدرسة الحسية التى ترى أن اللغة ردود أفعال وأنها استجابات لمواقف لغوية وأما المدرسة اللغوية العقلية فترجع اللغة إلى عقلية متكلميها مع إدخالها فى الاعتبار نواحى النشاط الثقافى والنفسى والشخصى وقيم الجماعة والأخلاق وغير ذلك . وكلاهما فى من وجهة نظرنا فى مجال بحثنا متكاملتان .

وفى النهاية يخرج بالقاعدة التى مؤداها قوله الآتى :

« وهكذا التقدير والتفسير أبدا فى كل ما جاء فيه لفظ قال هذا المجىء مفصولا غير معطوف يمكن أن يفهم على معنى الجواب والسؤال .

والباحث المنصف والقارئ العادى يحس نفسه من خلال عرض عبد القاهر وسط أحداث مسرح الحدث اللغوى . . ، خيفة وتوجس من قبل سيدنا إبراهيم : : ، وحركة من الملائكة فى محاولة لتأنيسه وتسكينه مما خامره وسؤال من السامعين وتشوف » ومن خلال هذا الواقع الحى تتبع اللغة متفاعلة معه بعناصرها المختلفة مظللة بإيحاءاته فيكون حذف عنصر من عناصر البنية أو إضافة ، أو تكرار أو قطع أو فصل أو وصل . . . إلخ فالتحليل العلمى المنصف للبناء اللغوى لا يتم إلا من خلال مسرح الحدث الذى دار عليه وهذا ما صنعه عبد القاهر ولكن عبد القاهر لم تكن لديه إمكانيات الدراسة الحديثة إلا أنه كانت لديه إمكانيات العبقرية اللغوية ومعه منهجه فى البحث العلمى فاستوقفته ظاهرة حذف الواو بعد قال ، ومجىء القول مفصولا غير معطوف فتتبع الظاهرة فى استقصاء وجمع كل موادها وأجرى عليها ما رآه من تجارب وشرح وحلل واستنتج وقنن وقعد وفى النهاية يعرض ما انتهى إليه فى تواضع العلماء — يقول :

« وذلك والله أعلم المعنى فى **جميع** ما يجىء منه على **كثرته** — كالذى يجىء فى قصة فرعون عليه اللعنة ، وفى رد موسى عليه السلام كقوله : —

قال فرعون : وما رب العالمين ؟

قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين :

قال لمن حوله : ألا تسمعون ؟

قال : ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون .

قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

قال : لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين .

قال : أولو جئتك بشىء مبين ؟

قال : فأت به إن كنت من الصادقين »[1].

وهكذا يأتى عبد القاهر الجرجانى بنص قرآنى وضحت فيه الظاهرة بشكل جلى — فكل (قال) فيه حذف منها الواو

---

(١) السابق : نفسه .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٨٦

سورة الشعراء الآيات ٢٣ / ٣١

وجساء القول مفصولا غير معطوف وهو على الرغم من كثرته تنطبق عليه القاعدة تماماً فمن خلال تفاعل مع الواقع الحى وفق ما تجرى به العادة بين المخلوقين تجد القاعدة متسقة أو على حد قوله :

جاء ذلك كله والله أعلم على تقدير السؤال والجواب كالذى جرت به العادة بين المخلوقين فلما كان السامع منا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال : وما رب العالمين ؟وقع فى نفسه أن يقول : فما قال موسى له ؟

أتى قوله : رب السموات والأرض مأتى الجواب مبتدأ مفصولا غير معطوف[1] والأكثر من ذلك أن عبد القاهر هنا يشرك القارىء معه ويطلب منه أن يكون طرفا وأن يسجل ما يراه من رد فعل عندما يكون طرفا فى مثل هـذا المسرح اللغوى فيقول : فلما كان الواحد منا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال . . . وقع فى نفسه أن يقول ، . .

ففكرة عبد القاهر هنا أبعد وأعمق مما ينادى به اليوم المحدثون ، فان كان المحدثون ينادون بأن تدرس اللغة من خلال واقعها الحى ، وأن تتبع دراسة النص من خلال السياق المعروف الذى جاء فيه Contx of Situation فإن ،عبد القاهر يذهب إلى ماهو أبعد إلى أن يطبق المبدأ على النصوص المكتوبة ؛ وذلك وفق ما تجرى به العادة بين المخلوقين ،فأحوال المخلوقين واحدة وطبيعة اللغة واحدة ؛

ويزيد الأمر أيضاحاً بأن يعطيك مثـلا فى غاية الجلاء دون أن يعلق عليه أو يشرح فيقول :

ومما هو فى غاية الوضوح قوله تعالى :

قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟

قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين [2].

ثم يعلق بقوله :

وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب : على أن ينزل السامعون كأنهم قالوا : فما قال الملائكة ؟فقيل : قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين [3]

وكذلك قوله عز وجل فى سورة يس[4]

واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا ثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون ؛

---

(١) السابق نفسه –

(٢) السابق ص ١٨٦ / ١٨٧

(٣) سورة الذاريات آية ٣٢

(٤) سورة يس آية ١٣ / ٢١

قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون .

قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين

قالوا : إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم .

قالوا : طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ،وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى .

قال : يا قوم اتبعوا المرسلين — اتبعوا من لا يسألكم أجراوهم مهتدون) ، التقدير الذى قدرناه من معنى السؤال والجواب بَيِّنٌ ظاهر فى ذلك كله [1].

أما وقد صارت الفكرة واضحة فلم يعد يشرح وإنما طلب من القارئ أن يطبق بنفسه وإن يحكم بما يرى . .

ويعد هذا جانبا واحداً من جوانب فكر عبد القاهر فى هذه القضية .

٢ — الجانب الثانى :

وهو أنه يقيم أهمية كبرى لطريقة النطق وكيفية الأداء :

ويلزم النحاة بأن يجعلوا تخريجاتهم منبثقة عن جانب النطق ويلائموا بين طريقة الأداء والدلالة ، ويتعاملوا مع اللغة من خلال الربط بين اللغة وماعليه أحوال المخلوقين وعاداتهم ، وألا يتعاملوا معها تعاملهم مع أمثلة جامدة لأن ذلك قد يوقعهم فى ضلالة كبيرة وقد يقودهم إلى الكفر والعياذ بالله [2] :

ويضرب على ذلك المثل فيقول :

« من المشكل فيه قراءة من قرأ : (وقالت اليهود عزير بن الله)[3] بغير تنوين . وذلك أن النحاة حملوها على وجهين :

الوجه الثانى : — أن يكون الابن صفة ، ويكون التنوين قد سقط على حد سقوطه فى قولنا : جاءنى زيد بن عمرو . ويكون فى الكلام محذوف ، ثم اختلفوا فى المحذوف :

فمنهم من جعله مبتدأ فقدر :

وقالت اليهود هو عزير بن الله .

ومنهم من جعله خبرا فقدر :

وقالت اليهود عزير بن الله معبودنا[4]. ،،

عبد القاهر لم يكتف بالتأويل العقلى المحض ، ولم يعامل اللغة معاملة الأمثلة الجامدة وإنما من واقع مادعا إليه من ربط اللغة بما عليه أحوال المخلوقين ومن أنك بهذا تستطيع أن تنقل الكلام من صورة إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئا

---

(١) السابق نفسه ١٨٧ —

(٢) الدلائل ص ٢٨٨ —

(٣) الآية سورة التوبة رقم ٣٠ م

(٤) السابق ٢٨٨

أو تحول كلمة عن مكانها إلى مكان آخر رأى أن كل تأويل عندما تربطه بواقع اللغة تكون له سمات خاصة ويعطى دلالة خاصة به — وهذا من الأمور المسلم بها الآن فى الدرس اللغوى الحديث . يقول الدكتور كمال بشر :

« يعمد النحاة من وقت إلى آخر إلى إعراب المثال الواحد بوجوه مختلفة مهملين فى أغلب الأحايين ربط هذه الوجوه بظروف الكلام وملابساته ومكتفين بالاعتماد على ماتجوزه قواعد اللغة من احتمالات افتراضية عقليه :

ومدار الموضوع يتلخص فى حقيقة بسيطة واحدة : أن المثال الواحد فى الموقف المعين لايمكن بحال أن يقبل غير وجه واحد من الإعراب ، ذلك الوجه هو الذى يقتضيه هذا الموقف وما تتطلبه ملابسات الحال .

فإذا ماتعددت وجوه الإعراب كما يفعل النحاة أحيانا اقتضى ذلك تعدد المواقف وتعدد المعنى كذلك » (١) .

ونعود إلى مايراه عبد القاهر فى هذا المقام : يرى عبد القاهر أن فى هذا التأويل إثبات صفة النبوة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — يقول :

« يدلك على ذلك أنك تجد الصفة ثابتة فى حال النفى كثبوتها فى حال الإثبات ؛ فإذا قلت : ماجاءنى زيد الظريف — كان الظرف ثابتا لزيد كثبوته إذا قلت : جاءنى زيد الظريف . » (٢) ودليل ذلك من ربط واقع اللغة بالمخلوقين

قوله : — « وذلك أنك إذا حكيت عن قائل كلاما ، أنت تريد أن تكذبه فيه ، فإن التكذيب ينصرف إلى ماكان فيه خبرا دون ماكان صفة . » (٣)

« تفسير هذا أنك إذا حكيت عن إنسان أنه قال : زيد بن عمرو سيد — ثم كذبته فيه ، لم تكن قد أنكرت بذلك أن يكون زيد بن عمرو ، ولكن أن يكون سيدا ؛ وكذلك إذا قال : زيد الفقيه قد قدم — فقلت له : كذبت — أو غلطت — لم تكن قد أنكرت أن يكون زيد فقيها ، ولكن أن يكون قد قدم — هذا مالا شبهة فيه — وذلك أنك إذا كذبت قائلا فى كلام أو صدقته فانما ينصرف التكذيب منك والتصديق إلى إثباته ونفيه والإثبات والنفى يتناولان الخبر دون الصفة » (٤)

---

(١) دكتور كمال بشر : علم اللغة العام — القسم الثانى — الأصوات ص ٢٤٠

(٢) عبد القاهر : دلائل الإعجاز . ص ٢٨٧

(٣) السابق — ص ٢٨٨

(٤) السابق ص ٢٨٨

عبد القاهر لايملك من وسائل الدراسة الحديثة شيئا ولكنه يملك أن يعيش واقع اللغة وأحوال المخاطبين والمتكلمين ويُشْهِد على مايرى السامعين — وينبه النحاة وهو إمامهم إلى أن بعض التأويلات النحوية التى تعتمد على الجانب العقلى المحض دون أن تدخل فى اعتبارها واقع اللغة وحال المتكلمين والمخاطبين قد تقود إلى أمر عظيم وهو الكفر — ويضرب مثلا آخر غير الذى مضى الأمر فيه أعظم — يقول :

« ومما هو من هذا الذى نحن فيه : قوله تعالى : (ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا خيرا لكم ») [1] .

وذلك أنهم قد ذهبوا فى رفع ثلاثة — إلى أنها خبر مبتدأ محذوف — وقالوا : إن التقدير : ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة — وليس ذلك بمستقيم — وذلك أنا إذا قلنا — ولا تقولوا : آلهتنا ثلاثة .كان ذلك — والعياذ بالله — شبهة الإثبات أن هاهنا آلهة ، من حيث إنك إذا نفيت فإنما تنفى المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ ، ولا تنفى معنى المبتدأ . فإذا قلت : مازيد منطلقا . كنت قد نفيت الانطلاق الذى هو معنى الخبر عن زيد — ولم تنف معنى زيد. ولم توجب عدمه ؛ وإذا كان كذلك — فاذا قلنا ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة » كنا قد نفينا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة ولم ننف أن تكون آلهة جل الله وتعالى عن الشريك والنظير .

كما أنك إذا قلت : ليس أمراؤنا ثلاثة — كنت قد نفيت أن تكون عدة الأمراء ثلاثة ولم تنف أن يكون لكم أمراء. هذا مالا شبهة فيه :

وإذا أدى هذا التقدير إلى هذا الفساد وجب أن يعدل عنه إلى غيره . » [2]

الذى يملكه عبد القاهر هو واقع اللغة وحال المخاطبين والسامعين والأمثلة التوضيحية أما الدراسة اللغوية الحديثة فإنها تملك من الامكانيات ماتصنف به أنواع الجمل وطرق نطقها وتنغيمها ونبرها مع إعطاء أنواع النبرة وأنواع التركيز والضغط فى كل حالة . . . . . الخ

وتتضح أبعاد تلك القضية التى يجهد فيها عبد القاهر نفسه من عرض بسيط لنموذجين من العبارات فى العربية تتحد خواصهما من حيث مكوناتها الصرفية ، وتتضح درجة الخلاف فى مراعاة طريقة نطقها ومميزاتها الصوتية — وهما من حيث التركيب الصرفى كلمتان [3] .

---

(١) الآية من سورة النساء رقم ١٧١ م

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٩٠ —

(٣) أنظر علم اللغة العام — القسم الثانى — الأصوات ص ٢٤٨ للدكتور كمال بشر. وافرأ أبعاد مثل هذه القضية التى نحن بصددها فى مواضع مختلفة منه .

وهما دون مراعاة النطق والخواص الصوتية ووفقا للتخريجات النحوية قد يكونان :

مبتدأ + خبر

أو مبتدأ + صفة

اسم معرفة + صفة معرفة .

مثاله : محمد + الصغير .

وعندما توضع فى الاعتبار النواحى الصوتية نجد نموذجين مختلفين نظما وإعرابا على النحو الآتى :

اسم معرفة + إمكانية سكته + صفة معرفة + نغمة هابطة .

اسم معرفة + استحالة سكتة + صفةمعرفة + نغمة صاعدة .

فالأولى جملة من مبتدأ وخبر : وبها تم الكلام .

والثانية من مبتدأ وصفة :

فالفيصل فى هذا التفريق هو إمكانية السكته Possibility of Pause بين عنصرى العبارة — مع الانتهاء بالنغمة الهابطة — وهى دليل الجملة التقريرية العادية — فى الأولى .

أما فى الثانية فعدم إمكانية السكته بين عنصريها impossibility of Pause مع انتهائها بنغمة صاعدة من نوع Rising of tone وهى دليل عدم تمام الكلام [1] .

فى الأولى : عزير بن الله

= جملة من مبتدأ وخبر بها تم الكلام وأفاد فائدة يقتضيها السياق وفى الثانية : عزير بن الله = مبتدأ وصفة فقط + عنصر صرفى ينضم إلى بقية نظم الجملة لتوافق العبارة المقام وتصير جملة تامة على نحو ماقدره النجاة فالأولى من مبتدأ وخبر — والثانية من مبتدأ وصفة وعندما تربط عناصر البنية بما يكون عليه أحوال المخلوقين فى النطق نجد أن بالجملة الأولى إمكانية سكتة Possibiliy of Pause مع انتهائها بنغمة هابطة ، والنفى والإثبات يتناول الجزء الأخير منها .

والثانية من مبتدأ وصفة مع استحالة السكتة impossibility of Pause

والانتهاء بنغمة صاعدة Rising of tone

لأن الكلام لم يتم — مما يترتب عليه أن النفى وهو الغرض الكريم لاينصب فى هذا المقام على كلمة ابن لأنها صفة وإنما ينصرف للخبر دون الصفة — وهو العنصر المحذوف الذى قدره النحاة على نحو مامر فالتقدير الأول يتحقق به الغرض الكريم — وفى التقدير الثانى يتحقق النفى على الخبر الذى قدره النحاة . . ولاينصب على كلمة ابن على نحو ما أوضح عبد القاهر .

---

(١) اقرأ . دكتور كمال بشر : علم اللغة العامة — الأصوات ص ٢٤٨

ومع ذلك لم يتنبه النحاة إلى مايصر عبد القاهر على بيانه من أن التأويل على هذه الصورة عندما يرتبط بالدلالة فهو : « إخراجه من موضع النفى والإنكار إلى موضع الثبوت والاستقرار »[1] على حد قوله ، وبدل أن يُعْمِلوُا عقولهم فى المنهج الذى يقدمه عبد القاهر أصروا على أن كون كلمة (ابن) صفة أمر مثبت مسطور فى الكتب وان قراءة (عزير) بغير تنوين قراءة معروفة ثابتة كذلك .

ويجيب عبد القاهر من خلال منهجه على النحو الآتى :

« إن القراءة كما ذكرت معروفة ، والقول بجواز أن يكون الابن صفة مثبت مسطور فى الكتب كما قلت ، ولكن الأصل الذى قدمناه من أن الإنكار إذا لحق لحق الخبر دون الصفة ليس بالشىء الذى يعترض فيه شك أو تتسلط عليه شبهة . فليس يتجه أن يكون الابن صفة ثم يلحقه الإنكار مع ذلك إلا على تأويل غامض ، وهو أن يقال : إن الغرض الدلالة على أن اليهود كان قد بلغ من جهلهم ورسوخهم فى هذا الشرك أنهم كانوا يذكرون عزيرا هذا الذكر ، كما تقول فى قوم تريد أن تصفهم بأنهم قد استهلكوا فى أمر صاحبهم ، وغلوا فى تعظيمه إنى أراهم قد اعتقدوا أمرا عظيما ، فهم يقولون أبدا : زيد الأمير ، تريد أنه كذلك يكون ذكرهم إذا ذكروه إلا أنه إنما يستقيم هذا التأويل فيه إذا أنت لم تقدر له خبرا معينا ، ولكن تريد أنهم كانوا لايخبرون عنه بخبر إلا كان ذكرهم له هكذا »[2] .

وهكذا من خلال ربط اللغة بواقعها الحى ومن خلال تمثيل أحوال المخلوقين ينتهى إلى سلامة منهجه فى ذلك التقدير أيضاً — أما كون أن الإنكار إذا لحق لحق الخبر دون الصفة فتلك قاعدة مقرره وليس ذلك بالشىء الذى يعترض فيه شك أو تتسلط عليه شبهة .

وفى رأيى أن ما انتهى إليه المستشرق الألمانى جو تهلف برجستراسر G. Bergstrasser فيما يمكن أن يكون قانوناً لغوياً أو قاعدة مطردة فى قوله : « وقد تكون آخر الجملة أشد ضغطاً من أولها »[3] قد استفاده من أعمال عبد القاهر ومن أقواله التى يلح عليها على نحو ما مر :

---

(١) الدلائل ص ٢٨٩ —

(٢) السابق — ٢٨٩ / ٢٩٠

(٣) جوتهلف برجشتراسر : التطور النحوى للغة العربية ص ٨٦ ط م السماح — وط أخرى للدكتور رمضان عبد التواب نشر مكتبة الخانجى — دار الرفاعى بالرياض .

مفهوم الضغط وضوح نسبى فى صوت أو مقطع — ويتعدل من حيث المكان ومن حيث القوه والضعف فى الجمل والعبارات وهذا التعديل يعتمد فى الغالب على أهمية الكلمات كما يعتمد على التنغيم — وله كما سبق وظائف صرفية ودلالية . الخ

« إن النفى و الإثبات يتناولان الخبر » :

« إن الإنكار إذا لحق لحق الخبر دون الصفة ... إلخ .

ومن الأمثلة المتعددة من نحو :

«إ زيد بن عمرو سيد : زيد بن عمرو **ليس بسيد**

زيد الفقيه قدم قدم : زيد الفقيه **لم يقدم**

ولا تقولوا ثلاثه انتهوا خيراً لكم .

تقدير آلهتنا ثلاثة ليس بمستقيم .

من حيث إنك إذا نفيت فإنما تنفى المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ ولا تنفى معنى المبتدأ ... إلخ ..

أما لماذا لم يشر برجشتراسر إلى استفادته من عبد القاهر ففى ظنى أن ذلك راجع إلى أن مثل هذه القوانين يدركها كل دارس متخصص فى هذا المجال ..

وأما لماذا أرى أنا أن برجشتراسر استفاد من عبد القاهر فذلك راجع إلى أمثلة أخرى فى مواطن متعددة وجدتها فى أعمال برجشتراسر ولها حالات مشابهة عند عبد القاهر على نحو ما سيتضح فيما يأتى فيما بعد .

وخلاصة ما ننتهى إليه هو أن السمات الصوتية تعطى معانى مختلفة نتيجة لأنماط النطق المتنوعة وكيفية الأداء حسب السياق والمقام — هذه واحدة والثانية أن على قارئ القرآن أن يلتزم بحدود التلاوة . فالقراءة سنة يجب قبولها والمصير إليها . « اقرءاوا كما قرأ أولوكم »[1] وعلى النحوى أن يضع فى اعتباره الالتزام بها .

ويُعَدّ هذا هو الجانب الثانى من أبعاد هذه القضية عند عبد القاهر ..

٣ — أما الجانب الثالث :

فهو : مراعاة ما يدل عليه المقام .

لا ما يكشف عنه ظاهر المقال :

ينبه عبد القاهر إلى أن ما يبحثه هنا ، قد لا يخطر على بال لأنه موضع : « : « فيه دقة وغموض — وهو مما لا يكاد يقع فى نفس أحد أن ينبغى أن يتعرف سببه ويبحث عن حقيقة الأمر فيه »[2] وذلك عندما يدل الكلام الواحد على أكثر من غرض « و » « يصبح حينئذ أقوى ما يكون وأعلق ما ترى بالقلب لأنه لا يراد بالكلام به نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه »[3].

---

(١) أنظر النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى — واقرأ ما جاء مثلا عن على بن حمزه الكسائى من أنه كان أوحد الناس فى القرآن وكيف كان الناس يأخذون عنه يسمعون ويضطبون ج ١ ص ١٧٣ — واقرأ أيضا غاية النهاية لابن الجزرى حيث جاء عنه أيضا : فقد كانت القراءة عمله وصناعته ولم يكن أضبط ولا أقوم بها منه ج ١ ص ٥٣٨ . /. . . .واقرأ مواضع أخرى فى هذا الصدد غير ذلك كثيرة .

(٢) الدلائل ص ٢٧٤

(٣) السابق ص ٢٧١

ويصطدم عبد القاهر بالنحويين التقليديين وهو أمامهم[1] — ويبدأ معهم بمسلمات فيقول :

« ليس ببعيد أن يظن الظان أنه ليس فى انضمام (ما) إلى (إن) فائدة أكثر من أنها تبطل عملها ، حتى ترى النحويين لا يزيدون فى أكثر كلامهم على أنها كافة »[2] ويأتى باستعمال آخر لها ويضيف : « ومكانها هنا يزيل هذا الظن ويبطله »[3]. ويوضح الأمر قائلا :

« ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ماتكون وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه نحو : أنا نعلم : أن ليس الغرض من قوله تعالى : (إنما يتذكر أولو الألباب)[4] أن يعلم السامعون ظاهر معناه — ولكن أن يذم الكفار ، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل ، وأنكم إن طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب »[5].

عبد القاهر فى عمله هنا يرسم خطوات منهج متبع اليوم فى الدرس اللغوى وهو استقراء الظاهرة فى أوضاعها ورصد كل حالاتها فى مختلف استعمالاتها وفى النهاية يقنن لها — فهو بعد أن استقرى[5] حالات (إنما) فى الأبنية اللغوية المختلفة التى يؤدى البناء الواحد فيها معانى متعددة من غير أن يزاد فيه أو ينقص منه ودون أن يحول فيه لفظ من مكان إلى مكان — ومن واقع اللغة وأحوال المخلوقين واستجاباتهم لتأثيراتها) يقول : إنك تجدها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه — ويضرب أمثلة متعددة المعنى المراد منها ليس ما يدل عليه ظاهر اللفظ والبناء وإنما معان أخرى ينبىء عنها السياق ومقتضى حال المتكلمين والمخاطبين والسامعين — ويضرب على ذلك الكثير من الأمثلة — منها مثلا قول الشاعر :

أنا لم أرزق محبتها إنما للعبد ما رزقا

فهذا البناء يؤدى بالإضافة إلى المعنى الظاهر معنى آخر — هو : كما يقول عبد القاهر « الغرض أن يفهمك من طريق التعريض :

---

(١) اشارت كل كتب الطبقات إلى إمامة عبد القاهر فى اللغة والنحو فى عصره ارجع إلى كتب الطبقات وقد سبقت الإشارة إليها .

(٢) السابق ص ٢٧١

(٣) آية ٩ ك من سورة الزمر .

(٤) السابق ص ٢٧١

(٥) يدلك عليه قوله السابق فى هذا النص « ثم إعلم أنك إذا استقريت وجدتها . . وقد لقى عنتا شديدا و بذل جهدا كبيرا فى استقراء هذه الظاهره كما هو معروف عنه من أمانه ودقة علمية و مجالدة على البحث يدلك عليه أن تلقى نظرة سريعة على فصول إنما فى أماكنها المتعددة فى دلائل الإعجاز .

أنه قد صار ينصح نفسه ، ويعلم أنه ينبغى له أن يقطع الطمع من وصلها ويأس من أن يكون منها إسعاف »[1].

ومن ذلك قوله :

« إنما يعذر العشاق من عشقا »

فبالإضافة إلى المعنى الظاهر هناك معنى آخر. يقول عبد القاهر عنه : « إنه ليس ينبغى للعاشق أن يلوم من يلومه فى عشقه وأنه ينبغى أن لا ينكر ذلك منه . فإنه لا يعلم كنه البلوى فى العشق . ولو كان أبتلى به لعرف ما هو فيه فعذره »[2] هذا معنى وهناك معنى آخر أراه غير ذلك ؛ ومثال آخر قول الشاعر[3] :

ما أنت بالسبب الضعيف ، وإنما
نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما
يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

فبالإضافة إلى المعنى الظاهر : هو يقول فى البيت الأول : « إنه ينبغى أن أنجح فى أمرى حين جعلتك السبب إليه ، ويقول فى البيت الثانى : إنا قد وضعنا الشىء فى موضعه وطلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض من الحاجة ، وعولنا على فضلك ، كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض له من السقم كان قد أصاب بالتعويل موضعه ، وطلب الشىء من معدنه »[4].

والذى أعطى هذه المعانى التى يسميها عبد القاهر المعانى التعريضية هى كما سبق أن قلنا من وحى أقواله أن اللغة تتبع أحوال المخلوقين وعاداتهم وظاهر أمرهم وموضوع جبلتهم وما يكون عليه حال المخاطب والسامع والشىء المتحدث عنه

وملابسات الحال ... إلخ ... ولكن عبد القاهر يريد هنا أن يذهب إلى ماهو أبعد فى هذه القضية إنه يريد أن يربطه بإحدى الوحدات اللغوية داخل التركيب فيقول :

« ثم إن العجب فى أن هذا التعريض الذى ذكرت لك لا يحصل من دون « إنما » فلو قلت : يتذكر أولوا الألباب . لم يدل على مادل عليه فى الآية ، وإن كان الكلام يتغير فى نفسه . وليس إلا أنه ليس فيه إنما ، والسبب فى ذلك : أن هذا التعريض إنما وقع بأن كان من شأن إنما أن تضمن الكلام معنى النفى من بعد الإثبات ، والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل ، فإذا أسقطت من الكلام فقيل (يتذكر أولو الألباب) كان مجرد وصف لأولى الألباب بأنهم يتذكرون ولم يكن فيه معنى نفى للتذكر عمن ليس منهم »[5].

---

(١) الدلائل ص ٢٧٢

(٢) السابق ص ٧٢

(٣) جاء فى الهامش ما يفيد أن هذا الشاعر هو الباخرزى .

(٤) السابق ص ٢٧٣

(٥) دلائل الإعجاز ص ٢٧٣

والذى دفع عبد القاهر إلى هذا التحليل اللغوى الممتع هو تلك الرؤيا الصائبة التى اهتدى إليها والتى تتحدد فيما توصل إليه من قانون لغوى مؤاه نص قوله الآتى :

« محال أن يقع تعريض بشىء ليس له فى الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه »[1] .

ويتمعن عبد القاهر فى العبارة وقد أسقطت منها وحدة « إنما » اللغوية — ويربطها بأحوال المخاوقين وعاداتهم فيجد أنه يمكن أن يقع بها تعريض . يقول فى هذا :

« التعريض بمثل هذا — أعنى بأن يقول يتذكر أولو الألباب بإسقاط (إنما) يقع إذن — إن وقع — بمدح إنسان بالتيقظ وبأنه فعل ما فعل وتنبه لما تنبه له لعقله ولحسن تمييزه . كما يقال : كذلك يفعل العاقل — وهكذا يفعل الكريم . »[2].

ولكن أين قانون عبد القاهر هنا : ذلك الذى يقول فيه :

« محال أن يقع تعريض بشىء وليس له فى الكلام ذكر ، ولا فيه دليل عليه » . وقد سقطت (إنما) ولكن عبد القاهر يكتفى هنا بأن يقول :

« هذا موضع فيه دقة وغموض — وهو مما لا يكاد يقع فى نفس أحد أنه ينبغى أن يتعرف سببه ، ويبحث عن حقيقة الأمر فيه »[3] :

من وجهة نظر الدراسة اللغوية الحديثة التعريض وقع بشىء له فى الكلام ذكر وفيه دليل عليه يدركه الدارس المحدث فى سهولة ويسر لأنه يدخل فى الاعتبار عند دراسة الحدث اللغوى كل ماله صلة به مما يتصل بالمتحدث وطريقته التى هو عليها أو النمط الموسيقى للكلام عنده وتنغيمه للكلام وضغطه على بعض أجزائه أو مقاطعه أو حروفه ونوع سكتاته ووصلاته وهمساته وسرعته فى الكلام أو بطئه ... إلخ مما تستطيع أن تسجله وتحلله أجهزة الدراسة الحديثة فى سهولة ويسر كما أنها تدخل فى الاعتبار الشىء المتحدث عنه وكل ما يتصل به مما له دخل فى الكلام .. وتدخل فى الاعتبار كذلك حال المخاطب والمخاطبين وكل ما يصدر عنهم من حالات استجابة أو رفض أو اشمئزاز أو سخرية أو ضحكة أو غمزة أو لمزة أو هزة كتف أو مطة شفة كما تدخل فى الاعتبار كذلك السامع وما يصدر عنه ... ومقام الاستعمال بصفة عامة ... جميع هذه وغيرها تدخل فى الاعتبار عند دراسة الحدث اللغوى وهو جوانب الكلام ، وعناصر الدلالة ولها وظائفها النحوية والصرفية والمعجمية والدلالية .. إلخ. (أى التحليل اللغوى من خلال المسرح الذى دارت عليه الأحداث) ومن هنا فإن فكر عبد القاهر فى تواؤم .

---

(١) السابق ص ٢٧٣
(٢) السابق ص ٢٧٣
(٣) السابق ص ٢٧٣ / ٢٧٤

وفى ظنى أن بدور الدراسة الحديثة فى أعمال عبد القاهر واضحة هذه واحدة ..

والثانية هى أننى أريد أن أقول إن جوتهلف برجشتراسر G. Bergstrasser استفاد من المباحث الخاصة بإنما عند

عبد القاهر بصفة خاصة [1] أجد ذلك واضحاً فيما توصل إليه من دراسات فيما نحن بصدده من نحو ما جاء عنده من قوانين مثل :

« قد يكون آخر الجملة أشد ضغطاً من أولها ... » . وذلك إذا قدمت (إنما) فهى تغير نظام ضغط الجملة . وتنقل أقوى الضغط إلى آخرها : ومثاله من القرآن الكريم : « إنما بغيكم على أنفسكم »[2] . — وضد إنما — (ما) — فهى تشدد الضغط على أول الجملة » :

أجد ذلك واضحاً فى أعمال عبد القاهر على نحو ما مر وفى غيره مما لم يذكر من نحو قول عبد القاهر : « « أعلم أن موضوع (إنما) على أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة — تفسير ذلك أنك تقول للرجل : إنما هو أخوك ، إنما هـــو صاحبك القديم لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ويقـــرُّبه ... إلخ »[4] وفى هـــذا وغيره من أمثلة عبد القاهر الضغط على آخر الجملة (« إنما » تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته ») :

وواضح من هذه القوانين أنها تتصل بسمات صوتية تُلوِّن النطق وتعطى أنماطاً من الأداء متنوعة حسب السياق والمقام — ويكفى عبد القاهر أنه تنبه إلى هذا ونبه عليه .

ونذكر هنا شيئاً من الجدير أن يحسب لعبد القاهر ويسجل له كذلك .

يقول عبد القاهر : « أعلم أن موضوع (إنما) على أن تجىء لخبر لا يجهله المخاطب و لا يدفع صحته أو لما يُنَزَّل هذه المنزلة : تفسير ذلك أنك تقول للرجل :

إنما هو أخوك .

إنما هو صاحبك القديم :

لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقـرُّبه — إلا أنك تريد أن تنبهه للذى يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب .

---

(١) وفى التراث بصفة عامة — على نحو ما نجد عند إبى على الفارسى من مباحث خاصة بانما فى « الشيرازيات — وعند ابن جنى وغيره . .

(٢) الآية فى سورة يونس رقم ٢٣ ك .

(٣) التطور النحوى للغة العربية لبرجشتراسر السماح سنة ١٩٢٩ ص ٨٦ / ٨٧ وافرأ ط . د . رمضان عبد التواب نشر : مكتبة الخانجى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م

(٤) دلائل الإعجاز ص ٢٥٤ .

ومثله قول الآخر :

إنما أنت والد والأب القا ..
.. طع أحنى من واصل الأولاد

لم يرد أن يعلم كافوراً أنه والد، ولاذاك، مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم ليبنى عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد »[1].

ثم ضرب أمثلة لما ينزل هذه المنزلة بقولهم :

إنما هو أسد .

إنما هو نار .

إنما هو سيف صارم »[2] ، ثم أضاف موضحاً بقوله :

« إذا أدخلوا إنما جعلوا ذلك فى حكم الظاهر المعلوم الذى لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى [3]».

ومن المعلوم أن التحليل النحوى لتلك التراكيب فى ضوء المفهوم التقليدى واحد :

إنما هو أخوك .

إنما هو صاحبك القديم .

إنما أنت والد والأب القاطع أحنى من واصل الأولاد .

إنما هو أسد

إنما هو نار

إنما هو سيف صارم

إنما نحن مصلحون

كما أن الضغط على الخبر من وجهة نظر برحشتراسر فى هذه التراكيب واحد أيضاً وهو الذى يتحقق من وجهة نظر عبدالقاهر فى قوله عن هذه التراكيب إنما « تجىء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة[4] » — أو الخبر بأمر يعلمه المخاطب ولا ينكره بحال[5] » .

ولكن الالتفاتة البارعة من عبد القاهر التى سجلت له قصب السبق فى هذا المجال وما زالت تحسب له كذلك حتى اليوم .. هو أنه رأى أن كل واحد من هذه الأساليب مخالف لصاحبه من حيث أحوال المخلوقين وعاداتهم وما تكون عليه مشاعرهم وعواطفهم وسياق الاستعمال بصفة عامة . مما يتطلب نوعاً خاصاً من الأداء وكيفية معينة ، فى النطق يتضح ذلك فى ضوء التحليل الآتى :

سواء من وجهة النظر التقليدية أو التجديديه لاخلاف — ولكن تبقى لعبد القاهر فوق هذه وتلك رؤيته التى تربط اللغه باحوال المخلوقين

---

(١) الدلائل ص ٢٥٤
(٢) الدلائل ص ٢٥٥
(٣) السابق ص ٢٥٥
(٤) السابق ص ٢٥٤
(٥) السابق ص ٢٥٥

التحليل

من وجهة نظر النحو التقليدى إن + ما تبطل عملها	من وجهة نظر التحليل التجديدية التى تضع فى الاعتبار مايتصل بكيفية الأداء

ما ينطبق على مثل واحد ينطبق على بقية الأمثلة سواء من هذه الوجهة أو من تلك :

بعد دخول ما على إن إن + ما		
إنما		
بطل عملها	—	—
إنما	مبتدأ	خبر
١ إنما	هو	أخوك
٢ إنما	هو	صاحبك
٣ إنما	هو	أسد
٤ إنما	هو	نار
٥ إنما	هو	سيف
٦ إنما	أنت	والد
٧ إنما	نحن	مصلحون

التحليل النحوى التجديدى الذى يضع فى إعتباره كيفية الأداء بطريقة النطق			
برجشتراسر إنما فى أول الجملة تغير نظام الضغط وتنقل أقوى الضغط إلى آخر الجملة			عبد القاهر إنما تجىء لخبر لايجهله المخاطب ولايدفع صحته أو لخبر بأمر يعلمه المخاطب أو لما ينزل هذه المنزلة
		ضغط	
١ الضغط على آخر الجملة			
٢ عند برجستراسر هو	أخوك	أخوك	أخوك
٣ فى جميع الجمل على النحو الآتى :	صاحبك	صاحبك	صاحبك
	أسد	أسد	أسد
٤ والخبر الذى يعلمه المخاطب	نار	نار	نار
٥ ولايدفع صحته عند عبدالقاهر فى جميع	سيف	سيف	سيف
٦ الجمل على النحو الآتى	والد	والد	والد
٧ وهو منها واحد	مصلحون	مصلحون	مصلحون

على نحو ماهو واضح من الجداول التحليل النحوى التقليدى فى التراكيب كلها واحد ماينطبق على مثال واحد ينطبق على بقية الأمثلة — كما أن الضغط على الخبر فى التراكيب كلها واحد ماينطبق على مثال ينطبق على بقية الأمثلة كما أن نقل الضغط إلى آخر الجملة — أو الاهتمام بآخر الجملة أو بالخبر شىء واحد كذلك .

غير أنه يبقى لعبد القاهر أنه يربط اللغة بأحوال مخلوقين من مخاطبين وسامعين .إلخ كما أنه يدخل فى الاعتبار عند تحليل الحدث اللغوى حال المخاطب والسامع والشىء المتحدث عنه ، ومعلوم أن مثل هذا لا يظهر إلا بمراعاة طريقة النطق وكيفية الأداء وسياق الاستعمال يؤكد ذلك نصوص عبد القاهر فى أعماله وأقواله الآتية [1] :

المثل الأول والثانى :

تقوله للرجل : « ترققه على أخيه وتنبهه للذى يجب عليه من صلة الرحم ومن حسن التحاب بين الإخوان » .

إنما هو أخوك — إنما هو صاحبك القديم

« لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقربه ، إلا أنك تريد أن تنبهه للذى يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب[2] » .

أى أن عبد القاهر أدخل فى اعتباره عند التحليل حال المخاطب والسامع والشىء المتحدث عنه وكل ما يظلل البناء اللغوى من خلال عاطفة ومشاعر تتصل بواقع اللغة الحى وتتفاعل مع عناصر البنية اللغوية فتترك صداه وظائف فى عناصر البناء اللغوى سواء من الجانب الصوتى أو الصرفى أو النحوى أو المعجمى أو الدلالى — وهذا ما يضعه اللغويون اليوم فى اعتبارهم عند تحليل البناء اللغوى [3].

وعلى نحو ما رأينا نجد الأمثلة الثالث والرابع والخامس :

إنما هو أسد — إنما هو نار — إنما هو سيف صارم — حيث يقول :

«إذا أدخلوا إنما جعلوا ذلك فى حكم الظاهر المعلوم الذى لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى [4] » ومعناه أن عنصر المخاطب والمتكلم والسامع يدخل عند التحليل وتستمد إيحاءاته من الواقع الحى وظلاله التى تظلل عناصر البنية اللغوية وتؤثر فيها عند التحليل . يؤكد ذلك ويوضحه نص ما يقوله عن المثال السادس :

إنما أنت والد والأب القا ..

.. طع أحنى من واصل الأولاد

« لم يرد أن يعلم كافوراً أنه والد ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام ، ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم لينبنى عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد [5]».

ومعنى ذلك إدخال ما يستتبع البناء اللغوى من عناصر ذات دخل بعاطفة المخاطب ومشاعره

وأما فى المثال السابع فيضيف عبد القاهر جانبا آخر من جوانب التحليل اللغوى وتعد تلك الإضافة منه لفتة رائعة فى هذا المجال — حيث يدخل فى الاعتبار ما يجب أن تكون عليه

---

(١) — (٢) — الدلائل ص ٢٥٤ / ٢٥٥

(٣) معناه بالمفهوم الحديث إدخال عناصر لها دور فى اللغة وإن لم تكن من اللغة .

(٤) السابق ص ٢٥٥

(٥) السابق ص ٢٥٤

بنية الرد الملائم — حيث يرى أن الرد على تراكيب إنما يجب أن يكون متسقاً معها فى الوحدات اللاغوية التى تدخل البناء اللغوى لتتفق مع المقام وتراعى فيها طبيعة الموقف وتعطى كل عنصر ما يساويه .

« من ذلك قوله تعالى : حكاية عن اليهود : (وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض ، قالو : إنما نحن مصلحون[1] ». ويضيف عبد القـــاهر موضحاً — وعلى القارئ أن يتدبر قوله إزاء وظيفة إنما من وجهة نظره:

« دخلت إنما لتدل على أنهم حين ادعوا لأنفسهم أنهم مصلحون—أظهروا أنهم يدعون من ذلك أمراً ظاهراً معلوماً »[2].

ولذلك جاء فى الرد فى تكذيبهم من وجهة نظره ما يتفق مع هذا السياق من حيث وحدات اللغة الداخلة فى البناء . ليكون التفاعل بين وحدات البناء متفقاً فى موقف لغوى حى ».

« فجمع بين ألا الذى هو للتنبيه — وبين— — إن — الذى هو للتأكيد — فجاء قوله تعالى: «ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»[3].

جاء الرد يساوى فى القوة دفع هذا الذى يدعونه . .

فأتى (بألا) التنبيهية — وبأن التوكيدية ولم يكتف بقولة تعالى : (هم المفسدون) .

ومعنى ذلك أن عبد القاهر فى دراسة هذه الظاهرة وضع أبعاداً ثلاثة تكمل بعضها ويكشف بعضها عن بعض لمن يتأمل أعماله ودراساته :

١ — مراعاة السياق العام ومقام الاستعمال وحال المخاطب والمتكلم والمتحدث عنه وما تتأثر به وحدات البناء اللغوى من ظلال أو عواطف ومشاعر تلقى أضواء على عناصر التحليل المختلفة وتؤثر فى الدلالة وتتفاعل معها .

٢ — مراعاة ما يدل عليه النطق من معان تعريضية لا مايكشف عنه ظاهر القول وقد تكون العبرة فى هذه المعانى التعريضية الخفية التى يكشف عنها تحليل البناء اللغوى من خلال مسرح الحدث الذى دار عليه وما تأثرت به عناصر البنية من ظلال وإيحاءات الواقع الحسى الذى عاشته اللغة فى هذا الموقف وأثرت فيه وتأثرت به —

مع اعتبار دراسة الرد على التركيب من عناصر البناء والمسرح معاً . .

٣ — إدخال الرد فى الاعتبار من حيث عناصر البناء اللغوى التى تتسق مع عناصر البنية

---

(١) الدلائل ص ٢٥٧
الآية من سورة البقرة ١٠ ورقم الآيات ١١ / ١٢
(٢) السابق .
(٣) السابق .

الشكلية و ما تعكسه من إيحاءات وظلال تحدث بُعْدَها الدلالى من خلال دورها التركيبى ومسرح الحدث اللغوى الذى يدخل فى الاعتبار تفاعل اللغة فى أخذ وعطاء ، وبدء ورد وفقاً لما يحدث بين المخلوقين وما تتصل بعاداتهم وظاهر أمرهم وموضوع جبلتهم وهذا يعين على دراسة اللغة مع فهمها وتذوقها .

وهذه وتلك إن حسبت لعبد القاهر فهى ليست له وحدة وإنما هى سبق فى الفكر العربى الإسلامى اللغوى .

هذا ما يتراءى لنا من وجهة نظر الدراسة اللغوية الحديثة . .

وإن كان معاندو عبد القاهر من معاصريه لم يتنبهوا لما دعا له وكان حظه منهم الإعراض عنه — وحظهم منه التهجم عليهم ورميهم بالغفلة والجهالة . . .

أما حظ عبد القاهر من بعض معاصرينا نحن فيمثله بكل أسف ما جاء على لسان عالم أعطى خلاصة فكره للبحث فى أعمال عبد القاهر ثم انتهى إلى سذاجة أفكار عبد القاهر فى شئون المعنى بصورة كبيرة حيث يقول :

« الواقع أن عبد القاهر يخدعنا عن سذاجة بحثه فى شئون المعنى كثيراً »(١) ثم يطالب منا أن نتنبه لذلك ويرى أن من « واجبنا أن نذوده عن عقولنا فى إصرار وتنبه »(٢) — ويرى آخرون غير ذلك (٣).

دكتور البدراوى عبد الوهاب زهران

الخبير بالمجمع

---

(١) الدكتور مصطفى ناصف : نظرية المعنى فى النقد العربى ص ٣٣ —

(٢) السابق : نفس الصفحة .

(٣) يطيب لى هنا أن أذكر رأى عالم لغوى محدث (الأستاذ محمد شوقى أمين) : عضو مجمع اللغة العربية القاهرى حيث قال لى فى حديث بيننا عن عبد القاهر أنه ينطبق عليه المثل الذى نقوله فى العامية المصرية (دا ولد شقى) عندما نصف ولدا ما تصدر عنه حالات تنبى عن ذكاء وغرابة قد تضايق رفاقه وتثير غضب غيرهم ولكنها تثير الإعجاب به وتجعلنا نقدره لما تنبئ عن مظاهر نجابة عند صاحبها فهى متاعب محببة .